بقلم : د. جوني منصور*

المستعربون: البدايات والجرائم

كيف أعدوا المستعرب وما هي مهماته؟

من ميزات الحياة العسكرية الاسرائيلية تمجيد الأعمال التي يحققها الجنود أو من يعمل في ميدان المعارك والقتال وما يرتبط بها. وترافق عمليات التمجيد طقوس معينة تحولت مع مرور السنين إلى ثوابت وقواعد تبنتها المؤسسة العسكرية الاسرائيلية، وتمت ترجمتها الى احتفالات عسكرية تقام كل عام في مواعيد قريبة من يوم «الاستقلال» الاسرائيلي أو قريبا من ايام احياء ذكرى المحرقة النازية ابان الحرب العالمية الثانية.

وجهاز (أو مؤسسة) «المستعربين» من بين الاجهزة (المؤسسات) العسكرية التي بلغت درجة عالية من حيث الاهمية من حيث الدور الذي لعبته وما زالت تلعبه في الصراع الاسرائيلي–الفلسطيني، والاسرائيلي –العربي عامة.

«المستعربون» مصطلح عربي في اساسه، وهو في الاصل «الاستعراب»، أي تبني حياة العرب في كل مناحيها الفكرية والمادية المتعددة. ويقوم بتمثيل حقيقي للمستعرب يهودي من اصل شرقي(سفارادي) له صلة حياة ماضية بالحضارة العربية والمجتمع العربي بكونه ولد وعاش فترة من الزمن في مجتمع وبيئة عربية. وبالامكان ايضا ان يكون من اوساط اليهود الاشكنازيين (الغربيين) في الاصل ولكن له صلات مع مجتمع عربي في فلسطين او خارجها ولديه المام كبير بكل ما يحتاج اليه المستعرب ليقوم بالمهام الكثيرة الملقاة على عاتقه. ولكن علينا الاشارة هنا الى ان اعداد الاشكنازيين المستعربين سواء من المستعربين الاوائل او الحاليين هو قليل للغاية.

يتمتع المستعربون بمكانة محترمة في المشهد الاسرائيلي،

* محاضر في التاريخ، جامعة مار الياس، عبلين وكلية بيت بيرل.

يتمتع المستعربون بمكانة محترمة في المشهد الاسرائيلي، خاصة وان العمليات الارهابية التي يقومون بتنفيذها ضد الفلسطينيين تلقى وقعا حسنا وتشجيعا وتعكس بطولات يجري الحديث عنها في الشارع العام داخل اسرائيل بكون هؤلاء (أي المستعربين) يؤدون رسالة انسانية أساسها توفير حماية للمجتمع الاسرائيلي الذي يتعرض وفق الرواية والسياسة الاسرائيلية الى الارهاب من قبل الفلسطينيين.

خاصة وان العمليات الارهابية التي يقومون بتنفيذها ضد الفلسطينيين تلقى وقعا حسنا وتشجيعا وتعكس بطولات يجري الحديث عنها في الشارع العام داخل اسرائيل بكون هؤلاء (أي المستعربين) يؤدون رسالة انسانية أساسها توفير حماية للمجتمع الاسرائيلي الذي يتعرض وفق الرواية والسياسة الاسرائيلية الى الارهاب من قبل الفلسطينيين.

واذا كان المستعربون الحاليون يتمتعون بهذا الكم من الاحترام والمكانة داخل المجتمع الاسرائيلي فإن جذور الاستعراب في الحياة العسكرية الاسرائيلية تعود الى الحرب العالمية الثانية. حينها كان الاستعراب موجها نحو الانكليز حكام فلسطين والفلسطينيين والعرب خارج فلسطين. وهذا ما سنوضحه من خلال مقالتنا هذه.

ونود الاشارة هنا الى ان موضوع الاستعراب ما زال يستحوذ اهتمام الشارع الاسرائيلي العام والعسكري الخاص. ووحدات المستعربين العاملة ضد الفلسطينيين تقوم بتأدية مهام في غاية الاهمية على صعيدي تجميع المعلومات الاستخبارية وتنفيذ عمليات ارهابية ابرزها التصفية الجسدية لمطلوبين فلسطينيين، كما تدعوهم المؤسسة الاسرائيلية.

ولا شك في ان معظم تقنيات واساليب العمل التي يقوم بها المستعربون الحاليين تعود في اصولها الى قواعد تم رسمها في مدرسة الاستعراب الاولى قبل قيام اسرائيل وبعدها بقليل.

اما الفكرة الاساسية التي تقف وراء الاستعراب فهي توفير قدر كبير ومتشعب من المعلومات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والادبية والمسرحية والسياحية وغيرها لتنقل الى المستويين السياسي والعسكري لدراستها واتخاذ القرارات اللازمة والملائمة تجاه الفلسطينيين ثم العرب.

ومن ابرز التقنيات العملية التي يستخدمها المستعربون الى يومنا هذا العيش داخل المجتمع العربي الفلسطيني وتبني كل اسس واساليب وانماط حياته دون منح الفرصة للفلسطينيين لكشفهم او التعرف على هويتهم. ولا يكتفي المستعربون بتبني الحياة العربية الفلسطينية وسواها انما يقومون بتجنيد شباب من بين الفلسطينيين لمساعدتهم في تنفيذ خططهم لقاء مبالغ من المال او وعود وظيفية معينة مستقبلية.

تحول الاستعراب الى علم يدرس في الاكاديمية العسكرية الاسرائيلية مدة من الزمن مع الاعتماد على مركبات تاريخية وشخصية تتعلق بالمستعرب من ابرزها كونه سفارادي وملم باللغة والعادات العربية وبإمكانه التحرك بحرية دون كشفه.

ما زالت حركة الاستعراب تقلق الفلسطينيين كثيرا، وهكذا كانت في السابق فيما عرف باسم «المستعربون الاوائل»، وبالمقابل فإن هذه الحركة، كما اشرنا الى ذلك قبلا، اكتسبت موقعا مرموقا في سفر «بطولات» الجيش الاسرائيلي على مر السنين.

ونرى انه من المفيد التعرف الى المستعربين الاوائل بغية فهم طبيعة عملهم وتحركهم مما سيساعد كثيرا على فهم واقع ونشاط المستعربين اليوم، لأنه لا توجد فروقات كثيرة بين ما يجري اليوم وما جرى في الماضي البعيد.

سنستعرض في مقالتنا هذه أهم وابرز الخلفيات التاريخية في مسيرة حركة المستعربين الاوائل، ومميزات عملهم والمواقع الجغرافية التي عملوا فيها، والعمليات التجسسية والارهابية البارزة التي قاموا بتنفيذها ومساهمتهم في افشال مخططات عربية قومية، والتنكر للحضارة العربية التي نشأوا فيها، وبناء

صورة بشعة عن العربي، ونشر آراء محبطة في اوساط الشارع العربي للحط من عزائم الجماهير العربية بما يخدم مصلحة اسرائيل.

من هم المستعربون وكيف نشأ الاستعراب؟

يعود الاساس في تحقيق فكرة الاستعراب العبري العسكري والاستخباراتي المنظم الى الانكليز وليس لقواد ومؤسسي «البالماح». لقد اقترح الانكليز في العام ١٩٤١ على القيادة الصهيونية بواسطة الدائرة السياسية لإدارة الوكالة اليهودية استغلال الامكانيات والقدرات الموجودة لدى اليهود الشرقيين العائشين في الييشوف (الاستيطان) العبري في فلسطين، وانتقاء مجموعة منهم وتهيئتهم ليتحولوا الى وكلاء استخبارات وزرعهم في البيئات العربية داخل وخارج فلسطين، خاصة بعد ان وقعت فرنسا تحت الاحتلال الألماني واقامة حكومة فيشي الموالية للنازية في العام ١٩٤٠، وبالتالي وقوع لبنان وسورية تحت السيطرة الالمانية بواسطة هذه الحكومة مما شكل خطرا على القواعد الحربية والمواقع الاستراتيجية البريطانية في الشرق الاوسط، خاصة في فلسطين ومصر.

وكان لا بد لهذه الفكرة من المرور في مسارات متنوعة الى ان بلغت مرحلة النضوج في العام ١٩٤٣ عندما اعلن كل من اسحق ساديه قائد «البالماح» ونائبه يغآل الون عن تبني الفكرة من منطلق ضرورة الاستعانة بمقاتلين يهود صهيونيين من فلسطين ذوي اصول شرقية لخدمة المشروع الصهيوني، الا وهو تحقيق اقامة دولة يهودية في فلسطين، واطلق على المجموعة الاولى من المستعربين«هشاحار» أي الفجر. ولتنظيم حركة الاستعراب ضمن المنظومة العسكرية الصهيونية اقيمت «الدائرة العربية في «البالماح».

ومما لا شك فيه ان هذه الدائرة التي عملت حتى العام ١٩٥٠ ساهمت كثيرا في توفير معلومات دقيقة حول ما كان يجري في الاوساط الفلسطينية والعربية داخلها وخارجها.

وتمكنت قيادة «البالماح» من تحديث مستمر لعمل ونشاط المستعربين الاوائل لتوفير كل ما تحتاج اليه القيادتين السياسية

مجموعة من المستعربين الأوائل

والعسكرية من معلومات ومعطيات تساعدها على فهم وادراك ما كان يجري على الساحتين الفلسطينية والعربية وبالتالي الى اتخاذ قرارات وخطوات عملية، كما سنلحظ ذلك من عدد من النماذج التي سنقدمها خلال استعراضنا مسيرة تطور وتقدم الاستعراب.

الشراكة البريطانية –الصهيونية

ادرك الانكليز اهمية اقحام منظمات صهيونية ذات صبغة عسكرية قتالية ضمن منظومة النشاطات العسكرية لمواجهة الخطر الالماني في الشرق الاوسط وللحد مستقبلا من امكانية توسيع التطلعات الاستعمارية الفرنسية في هذه المنطقة. اضف الى ذلك ان الانكليز ارادوا تهيئة الاجواء لتسلم اليهود ادارة فلسطين وفقا للوعد المقطوع للمنظمة الصهيونية في تصريح بلفور(من العام ١٩١٧) وما تبعه من تعهدات بريطانية ودولية. وبالفعل بدأت عملية ترجمة التعاون بل لنقل الشراكة البريطانية – الصهيونية من خلال لقاءات اولية تمت بين الدائرة العربية في «البالماح» وبين «وحدة العمليات الخاصة البريطانية» في سورية بوساطة ممثل هذه الوحدة في سورية الكابتن غودوين. وتعمق التعاون اكثر بين الطرفين عندما قام الكابتن هموند بتدريب مقاتلين يهود في العام ١٩٤١ على تنفيذ عمليات استخبارية وتخريبية، وادرك هذا العسكري ان طاقة تنفيذ مثل هذه العمليات على وجهيها تكمن في ابناء الطوائف الشرقية من اليهود الذين تم تدريبهم على استخدام الاسلحة واللاسلكي والقتال الوجاهي المباشر.

وكان واضحاً لقيادة «البالماح» ولمشغلي المستعربين ان هذه الشراكة لا تتمتع بديمومة اذ سرعان ما تنكرت قيادة «البالماح» للانكليز وشرعت في تنفيذ عمليات استخبارية وتخريبية ضد عدد من المواقع البريطانية في فلسطين، او على الاقل توفير معلومات استخبارية حول قواعد ومواقع عسكرية ذات اهمية استراتيجية تم نقلها الى قيادات المنظمات الصهيونية العسكرية، خاصة «الهاغاناه» و«البالماح»، وهذه بدورها عرفت كيف تستفيد منها خدمة لأهدافها وغاياتها.

وبالمقابل عندما قرر الانكليز التخلص من الوحدة العاملة في سورية والتي شارك عدد من المستعربين في صفوفها بدأوا بمصادرة الاسلحة التي كانت بحوزة الاعضاء في الوحدة، الا ان وحدة «البالماح» الثالثة قامت بسرقتها من مخازن الاسلحة في الكرمل بالقرب من حيفا.

الاشكنازيون اولاً ثم السفاراديين

من اهم خصوصيات بناء الدولة اليهودية بسط الهيمنة الاشكنازية على كافة مؤسساتها ومرافقها حال اقامتها على ارض الواقع. وادرك الاشكنازيون الاباء مدى حاجتهم الى السفاراديين بسبب امتلاكهم قدرات وطاقات غير موجودة لديهم – أي لدى الاشكنازيين، وفي مقدمتها اجادة اللغة العربية ومعرفة العادات والتقاليد العربية بكل تفاصيلها. ولهذا كان الامر في غاية الوضوح في ان يكون السفاراديون الزيت المغذي للآلة الاشكنازية، وبناء عليه نجح قياديو «الهاغاناه» و«البالماح» في استقطاب عدد كبير من السفاراديين ذوي القدرات المتميزة للانخراط في وحدة المستعربين وبالتالي الى تشغيلها في فلسطين وخارجها في الفترة السابقة لإقامة اسرائيل والسنوات الاولى بعد ذلك.

من جهة اخرى لم تفسح الطغمة الاشكنازية المجال امام السفاراديين لإتخاذ قرار سياسي او عسكري يتعلق بقضية او مسألة سياسية او عسكرية. المهمة المركزية التي انيطت بالسفاراديين هي تجميع المعلومات الاستخبارية على كافة انواعها وتوصيلها الى مقر القيادة لدراستها وفهمها وتمحيصها ثم اتخاذ القرار.

وتعرض المستعربون السفاراديون الى تمييز من قبل اعضاء الكيبوتسات (وهؤلاء في غالبيتهم الساحقة من الاشكنازيين). ورأى اعضاء الكيبوتسات في المستعربين غرباء غير مرغوب فيهم في اوساطهم. ويقول بهذا الخصوص احد ابرز المستعربين الاوائل جمليئيل كوهين: «لم يكن كيبوتس الياجور المحطة الاخيرة التي تعلم فيها المستعربون درسا في التمييز من قبل اهلنا. لقد وصلت الى الكيبوتس مجموعات من الاولاد المهاجرين من اوروبا ومن بلدان شرقية، بينهم اولاد من دمشق وحلب، ودار الحديث داخل الكيبوتس حول تبني هؤلاء الاولاد. واثناء

من جهة اخرى لم تفسح الطغمة الاشكنازية المجال امام السفارادیین لإتخاذ قرار سياسي او عسكري يتعلق بقضية او مسألة سياسية او عسكرية. المهمة المركزية التي انيطت بالسفارادیین هي تجميع المعلومات الاستخبارية على كافة انواعها وتوصيلها الى مقر القيادة لدراستها وفهمها وتمحيصها ثم اتخاذ القرار.

انعقاد الاجتماع العام لكيبوتس الياجور رفع الاعضاء اصابعهم مؤيدين تبني الاولاد الاوروبيين، بينما رفضوا تبني الاولاد الشرقيين بإدعاء انهم لا يعرفون عقليتهم، اذ انه من الممكن ان هؤلاء لا يعرفون الانظمة وقد يستصعبون التأقلم في الاطر العائلية». ويستطرد كوهين واصفا هذه الظاهرة المؤلمة بالنسبة له: «ولأن الامر ازعجني، طلبت ان انشر في نشرة الكيبوتس قائمة مقارنة بين تصرفات الاعضاء في الكيبوتس وبين تصرفات الالمان تجاه اليهود اثناء المحرقة. من الواضح ان قائمتي هذه لم تنشر بسبب المقارنة المبالغ فيها والجريئة، الا ان الرسالة قد وصلت الى مسامع المسؤولين، وفي نهاية الامر تم استيعاب كافة الاولاد لدى العائلات». ومن بين هؤلاء الاولاد تم فيما بعد تحضير عدد منهم للانخراط في صفوف المستعربين في الدائرة العربية التابعة لـ «الباماح».

ووضعت القيادة العامة لـ «الهاغاناه» و«الباماح» مخططا لتصفية عدد كبير من الالمان التمبلريين (الهيكليين) بتهمة انتمائهم الى النازية وذلك مباشرة بعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها. وتم اختيار المستعربين لتنفيذ هذه العمليات لتظهر وكأنها منفذة من قبل العرب وليس لليهود أي شأن فيها على الاطلاق. ولكن عمليات كهذه لم تخرج الى حيز الوجود، انما علينا الاشارة هنا الى صلب التفكير الاشكنازي باستثمار السفارادیین كمادة حية لتنفيذ مخططاتهم ومآربهم السياسية والعسكرية.

مميزات المستعرب

كثيرة هي المميزات التي يجب ان يتحلى بها شخص ليكون في صفوف المرشحين للانخراط في وحدة المستعربين، ولكن بالامكان الاشارة الى عدد من المقاييس البارزة والمركزية التي شكلت شروط القبول وبالتالي شكلت الاساس المستقبلي لوحدة المستعربين العاملة حاليا في الاراضي الفلسطينية. ومن بين هذه الشروط/المقاييس ما يلي:

* ان يكون ابن طائفة يهودية شرقية.
* ان يكون مهاجرا من بلد عربي او من شمال افريقيا.
* لغته العربية (لغة بيته وبيئته الاساسية).
* ان يكون قد احتك مع جيرانه العرب في موطنه الاصلي وتعرف جيدا على عاداتهم وتقاليدهم المتنوعة.
* ان يكون صاحب مظهر عربي/شرقي.
* ان يمتلك قدرة على التحمل والطاعة، وان يكون انسانا مستقيما وصاحب قدرات على المبادرة والرد السريع، وعلى استعداد للتضحية والعطاء.
* ان يمتلك قدرة على التأقلم مع ظروف حياة العرب الصعبة والقاسية في كثير من الحالات وفي كثير من المواقع التي من الممكن ان يُرسل اليها.
* ان يكون على استعداد تام لخدمة الصهيونية واهدافها وابرز ما فيها السعي الى تحقيق مشروع اقامة الدولة اليهودية في فلسطين.

مواقع مختارة لنشاطات المستعربين

ليس صدفة ان يكون اختيار مواقع عمل المستعربين ونشاطاتهم في المدن والقرى العربية المركزية سواء في فلسطين او خارجها، وعلى الاخص في دول الجوار. وسبب تركيز العمل

ونقل المستعربون معلومات وافية حول اسواق المدن المركزية والجسور وتحركات وحدات عسكرية وشرطية، وحول مخازن الاسلحة، وابرز واهم الفنادق والمطاعم التي يرتادها كبار الزعماء والقياديين العرب في المدن المركزية في لبنان وسورية والعراق ومصر وفلسطين وغيرها.

في هذه المدن والقرى يعود الى كونها اساس حياة وفعاليات العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ومراكز التأثير على القرارات السياسية وسواها من قرارات يومية او مصيرية.

اضف الى ذلك انه تم وضع مجموعة من قوائم المواقع الاستراتيجية في العالم العربي على وجه الخصوص لتكون اهدافا استخبارية او اهدافا لتنفيذ عمليات تخريبية – ارهابية فيها.

ومن بين المدن والقرى التي تم اختيارها لتنفيذ العمليات والتحركات الاستخبارية في الدول العربية المجاورة: بيروت، صيدا، صور، طرابلس، مصايف لبنان الساحلية والجبلية، دمشق، حمص، حماه، حلب، ديرالزور، بغداد، الموصل، كركوك، القاهرة، الاسكندرية، بورسعيد، القدس، حيفا، يافا، عكا، طبريا، صفد، الخليل وغيرها. اضافة الى عدد من المدن والمواقع الاستراتيجية في اوروبا والتي لها علاقة بطبيعة العمليات الاستخبارية التي تحتاج اليها قيادة «الهاغاناه» و«البالماح».

ومن بين المواقع ذات الحساسية الاستراتيجية نذكر: مصافي البترول في لبنان وسورية والتي كانت مستهدفة من قبل المستعربين لنقل معلومات عنها الى القيادات العسكرية والسياسية لإتخاذ قرار بنسفها وتخريبها والحاق اضرار فادحة بالاقتصاد السوري وغيره. وكذلك تمت عمليات تجميع معلومات حول حركة المطارات في كل من سورية ولبنان بهدف تنظيم عمليات تخريبية لتدمير مدرجات وطائرات والحاق اضرار فادحة بحركة الطيران المدنية والعسكرية ايضاً. وشملت قائمة المواقع المستهدفة محطات القطارات المركزية في دمشق وحلب بهدف ترصد حركة المسافرين ونقل البضائع التجارية عبرها وتنظيم عمليات تخريبية فيها. اضافة الى ذلك تمت عمليات نقل معلومات استخبارية حول محطات توليد وانتاج الطاقة الكهربائية في لبنان وسورية بهدف الحاق اضرار جسيمة فيها وبالتالي اصابة الاقتصاد المحلي بضرر كبير يؤثر على تركيز وتوجه الحكومات العربية نحو معالجة القضايا المحلية والابتعاد عن القضية الاساس، وهي قضية فلسطين.

ونقل المستعربون معلومات وافية حول اسواق المدن المركزية والجسور وتحركات وحدات عسكرية وشرطية، وحول مخازن الاسلحة، وابرز واهم الفنادق والمطاعم التي يرتادها كبار الزعماء والقياديين العرب في المدن المركزية في لبنان وسورية والعراق ومصر وفلسطين وغيرها.

نستطيع الايجاز في هذا السياق بالقول ان كل المواقع التي يتواجد فيها العرب الفعالون والنشيطون سياسيا واقتصاديا وفكريا، كانت على القوائم المستهدفة لتجميع المعلومات الاستخبارية ونقلها الى مقرات القيادة الصهيونية لدراستها واتخاذ القرارات والاجراءات التي تتناسب والمخططات السياسية والعسكرية المرسومة من قبلها.

اما اسباب اختيار هذه المواقع فمرده لكونها تتمتع بمكانة وظيفية مهمة، ومنها تصدر القرارات المصيرية ومنها ايضا تتحرك الفعاليات السياسية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية مما يزيد من دورها الفعال داخل مجتمعاتها العربية، ولهذا من المفيد الحاق الاضرار بها بواسطة تسديد ضربات ارهابية مباشرة او تأجيل العمليات الى وقت لاحق ريثما تتوفر الاجواء الملائمة لتحقيق ذلك.

علم الاستعراب – البرنامج التعليمي والتطبيقي

منذ ان تأسست الدائرة العربية في «البالماح» وقادها اسحق خانكين (احد قياديي «الهاغاناه») وأساس عملها تنظيم دراسة الاستعراب نهارا وحراسة المواقع العسكرية التابعة لـ «الهاغاناه» و«البالماح» ليلا. وكانت الانطلاقة الاولى لهذه الدائرة في موقع الخريبة بالقرب من قريتي عسفيا ودالية الكرمل على جبل الكرمل (على بعد ٢٥ كيلومترا عن حيفا). وتم اختيار هذا الموقع لتمتعه بصفة البعد عن عيون الناس ودون معرفة من جانب الانكليز (لأول وهلة). وكان ابرز وأهم هدف وضعته الدائرة واجهزتها فيما بعد هو السعي الى اختراق المجتمع العربي بكافة مستوياته الحياتية والقيادية. وكان في الخريبة كسارة حجارة تم تشغيلها للتغطية والتمويه على الفعاليات والنشاطات التي تقوم بها الدائرة واذرعها.

ثم جاءت المراحل الاكثر دقة وشملت مراقبة وتتبع تحركات شخصيات سياسية ووطنية مهمة وذات مكانة مرموقة في المشهد السياسي الفلسطيني خاصة والعربي عامة

والقي على عاتق هذه الدائرة واذرعها تنفيذ عمليات خاصة في فلسطين وخارجها في اوقات السلم والحرب على حد سواء. وتمسك آباء «الهاغاناه» و«البالماح» برؤيا ان حربا ستندلع بين اليهود والعرب في وقت ما، ويبدو انها اصبحت قريبة ، وان هذه الحرب لن تبقى حرب عصابات. ولهذا اصبح من الضروري الاستعداد اللازم لهذه الحرب، وأحد أسس الاستعداد القيام بتجميع أكبر قدر من المعلومات حول المجتمع العربي الفلسطيني والمجتمع العربي خارج فلسطين للاستفادة من هذه المعلومات والمعطيات، وبالتالي يصبح من السهل على مراكز القرار بناء استراتيجية العمل الآني والمستقبلي.

وشمل علم الاستعراب الميادين التالية:

* حفظ سور أو آيات من القرآن الكريم .
* معرفة الصلاة ومواعيدها.
* دراسة اللغة العربية جيدا، الفصحى واللهجة المحلية.
* دراسة الفولكلور العربي.
* دراسة التاريخ العربي والاسلامي.
* دراسة علمي الحساب والهندسة وكيفية استعمالهما في الاوساط العربية سواء أكانت فلسطينية أم عربية خارج فلسطين.
* معرفة العادات والتقاليد الاجتماعية معرفة جيدة لأنها اساس التعامل في المجتمع العربي.
* قراءة جريدة في مطعم او مقهى وكيفية الجلوس والتعامل مع المجتمع المحيط.
* معرفة الامثال العربية الاكثر شيوعا واستخدامها في الاوقات المناسبة.
* التعرف على المأكولات العربية بأسمائها وتذوقها وابداء الآراء بشأنها.
* معرفة التشريعات المعمول بها يوميا داخل المجتمع العربي الفلسطيني وغيره.
* التعرف على المبنى الاسري للعرب في فلسطين.
* حفظ مجموعات كبيرة من الشتائم والالفاظ النابية.
* معرفة الاعياد والمواسم والمناسبات الدينية والعامة داخل المجتمع الفلسطيني والعربي عامة.
* معرفة كيفية الاستماع الى الراديو والتظاهر بالتأثر بما تثيره البرامج وسواها من اخبار سياسية على مستمعيه.
* ارتداء ملابس تتناسب وتلك التي يرتديها الفلسطينيون سواء أكانوا من سكان المدن أم القرى أم البادية.
* معرفة عدد من المعتقدات العامة الشائعة في الاوساط العربية في فلسطين وخارجها، خاصة تلك المتداولة يوميا على ألسنة الناس.
* ممارسة لعبة النرد (الطاولة) والسلوكيات المرافقة لها اثناء اللعب.

اما الجانب العملي والتطبيقي لعلم الاستعراب فيجري على يد اخصائيين أو اصحاب خبرة في المجتمع الفلسطيني والعربي عامة. وساهم عدد كبير من الباحثين والمحاضرين والسياسيين في تعليم وتدريب المستعربين على معرفة علم الاستعراب. وبطبيعة الحال ما زالت الاساليب نفسها متبعة

ولكن التقنيات تبدلت.

شمل البرنامج التدريبي والتطبيقي للمستعربين سلسلة من الفعاليات والمهام التي كان يتوجب عليهم القيام بها لمدة قصيرة مكثفة الساعات. وكان التدريب الاول والاساسي له علاقة باستعمال الاسلحة والتدريبات العسكرية ثم التعرف على التقنيات الخاصة بتجميع المعلومات وكيفية نقلها بالاجهزة اللاسلكية او السلكية (التليفون) مع استخدام الشيفرات الخاصة لذلك، وكيفية استخدام خدمات البريد بغطاء مزيف.

شملت المرحلة الثانية من التدريبات والتطبيقات العملية اطلاق المستعربين الى المدن والقرى الفلسطينية للتعرف عليها مباشرة، فتم تنظيم جولات ميدانية في الاسواق والمطاعم والمقاهي والفنادق والصالونات والمدارس والنوادي والمساجد والكنائس والبلديات والمستشفيات ومراكز الشرطة وغيرها.

ثم جاءت المراحل الاكثر دقة وشملت مراقبة وتتبع تحركات شخصيات سياسية ووطنية مهمة وذات مكانة مرموقة في المشهد السياسي الفلسطيني خاصة والعربي عامة، وتمت مراقبة تحركات كل من رؤساء بلديات ومخاتير وقضاة وتجار ونقابيين ومحامين ومحرري صحف ومديري بنوك، وحتى المجانين والشحاذين والباعة المتجولين لم يسلموا من مراقبة وتتبع المستعربين لهم.

وطلب من كل مستعرب اعتماد تسجيل يومي لكل ما يشاهده او يصادفه او يراقبه او يستمع اليه. فتم تسجيل المعلومات التالية (تم مؤخراً فتح ملفات كثيرة لها علاقة بعمل ونشاط الدائرة العربية في «البالماح» في اراشيف «البالماح» و«الهاغاناه» والجيش الاسرائيلي): مشاكل السكن، المعيشة، الثقافة، الادارة المدنية، خدمات الجيش والشرطة، الكهرباء والمواصلات، حركات النقل التجاري البري والبحري والجوي، انواع الاسلحة، معسكرات جيوش، اصداء ومواقف اللاجئين الفلسطينيين تحت حكم الملك عبدالله الاول، وايضا في لبنان في اعقاب نكبة ١٩٤٨. وقاموا بتجميع طوابع بريدية وايرادية ورسمية في سورية ولبنان والاردن. واسطوانات وكتب جغرافيا وارشاد. ووضعوا قوائم بالمصانع والمحلات التجارية والمؤسسات التربوية. جمعوا خرائط وجرائد يومية ومجلات ومعلومات حول شبكتي تزويد المياه والكهرباء، وتحركات سياسية وحزبية في بيروت ودمشق وغيرها من المدن المركزية في العالم العربي المحيط بفلسطين.

كل هذه التسجيلات والمعلومات كانت تنقل الى مقرات ومراكز قيادة «الهاغاناه» و«البالماح» ثم الجيش الاسرائيلي (بعد العام ١٩٤٨) لدراستها وتمحيصها وفحصها بصورة دقيقة لتكون خير عون لها في بناء خططها العسكرية لتنفيذ عمليات ارهابية وتخريبية.

شبكات تجسسية منتشرة في العالم العربي

اعتمدت الدائرة العربية في «البالماح» زرع سلسلة من شبكات التجسس في العالم العربي قبل وبعد العام ١٩٤٨، وتكونت هذه الشبكات من افراد قلائل وليس من مجموعات كبيرة وذلك من منطلق الحفاظ على سرية العمل.

والقي على عاتق هذه الدائرة واذرعها تنفيذ عمليات خاصة في فلسطين وخارجها في اوقات السلم والحرب على حد سواء.

وتم تحضير هذه الشبكات التجسسية بنفس الاسلوب والبرنامج الموصوف اعلاه بالنسبة للمستعربين، وتم تدعيم هذه الشبكات بأجهزة بث سرية وحددت لها اهدافها الاساسية، وابرزها تجميع المعلومات المتنوعة حول التحركات العسكرية والسياسية في العالم العربي.

ولم يقتصر نشاط شبكات التجسس على نقل المعلومات بل بلغ الامر بعدد من اعضائها انهم اندمجوا وانخرطوا في النشاطات السياسية والاجتماعية العامة في سورية ولبنان، كما حصل مع بعضهم في الحزب القومي السوري في منتصف الاربعينيات من القرن الماضي، او الانضمام الى صفوف الجيش العربي الاردني والتعرف على خططه واسلحته وتحركاته، وبالطبع نقلها سريعا وتباعا الى قيادات «الهاغاناه» و«البالماح» والجيش الاسرائيلي فيما بعد.

ومن بين المهام التي قام بها المستعربون ضمن شبكات التجسس التي اقاموها في بيروت ودمشق والقاهرة وبغداد، انهم نظموا جولات لتجميع معلومات حول المناطق المختلفة،

كان دور شبكات التجسس التي شغلها المستعربون تسبق القرار السياسي والعسكري لدى القيادة العليا لكل من «الهاغاناه» و«البالماح» ثم لقيادة الجيش الاسرائيلي بعد توحيد كافة العصابات العسكرية والحربية اليهودية العام ١٩٤٨. بمعنى آخر ان دور هذه الشبكات كان أحد الاعمدة الاساسية السابقة لأي قرار سياسي وعسكري في آن واحد أو على حدة.

وايضا جمعوا معلومات حول أبرز واهم المواقع العسكرية والمدنية البريطانية والفرنسية في فلسطين وشرقي الاردن ولبنان وسورية والعراق بهدف وضع الخطط اللازمة لتسديد ضربات عسكرية نحوها وقت الضرورة، وايضا المشاركة في تنفيذ عمليات قتل وتصفية ضد عرب تعرضوا ليهود داخل فلسطين وخارجها.

كان دور شبكات التجسس التي شغلها المستعربون تسبق القرار السياسي والعسكري لدى القيادة العليا لكل من «الهاغاناه» و«البالماح» ثم لقيادة الجيش الاسرائيلي بعد توحيد كافة العصابات العسكرية والحربية اليهودية العام ١٩٤٨. بمعنى آخر ان دور هذه الشبكات كان أحد الاعمدة الاساسية السابقة لأي قرار سياسي وعسكري في آن واحد أو على حدة.

أنا فلسطيني لاجئ علناً

من بين مجموعة المساهمات الاستخبارية المهمة التي قام بها المستعربون كانت تجميع معلومات حول القرى والمدن الفلسطينية وسكانها وسير الحياة فيها يوميا، ثم نقلها الى مقرات القيادات العسكرية الصهيونية لدراستها وتمحيصها. واخترق المستعربون المجتمع الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨ وتعرفوا على مبانيه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وبالتالي توفرت مواد كثيرة جدا حول هذا المجتمع شكلت رصيدا جيدا لمعرفة كيفية توجيه القيادات العسكرية الصهيونية ثم الاسرائيلية تحركاتها العسكرية والسياسية فيما بعد.

وساهم المستعربون في خلق اجواء من الرعب غير المباشر في اوساط الفلسطينيين من خلال التشديد على خيانة القيادة العربية المحلية والاقليمية، وخيانات من قبل عرب فلسطينيين محليين، وتقاعس قياديين عن مؤازرة الفلسطينيين امام اليهود، وشددوا على التفوق العسكري اليهودي وان اليهود لن يتوانوا في القضاء على كل الجيوش العربية، وان المنظمات /العصابات العسكرية اليهودية منظمة جدا ومزودة بأحدث الاسلحة، كل هذه الامور(وغيرها كثير لا يتسع المقال لذكرها) التي تم بثها في المجتمع العربي لعبت دورا بارزا في اثارة مخاوف وقلق المجتمع وبالتالي الى بناء الاساس لانتقال عدد كبير من العائلات الفلسطينية من فلسطين الى البلدان المجاورة عندما اشتعلت الاحداث والاشتبكات في العام ١٩٤٨.

وتظاهر عدد من المستعربين بكونهم فلسطينيين لاجئين واندسوا في صفوف اللاجئين في مخيمات وتجمعات اللاجئين في لبنان والاردن لمعرفة الاجواء السائدة في اوساطهم ولزرع بذور الخوف والتهويل من امكانيات العودة. اضف الى ذلك ان المستعربين المتظاهرين بأنهم لاجئون قاموا بجمع معلومات حول المخيمات والهيئات الداعمة ومواقف الحكومات العربية المضيفة للمخيمات (في لبنان وسورية والاردن) وحول شخصيات سياسية وميدانية كانت تعمل في حقل الخدمات المقدمة للاجئين الفلسطينيين. ونقلوا أيضا صورا بواسطة استخدام كاميرات تصوير صغيرة الحجم، وهذه تم نقلها الى القيادة العامة للاستخبارات العسكرية في الجيش الاسرائيلي.

كانت المعلومات التي قام بتجميعها المستعربون قاعدة اولية لتخطيط وبرمجة عمليات ارهابية وتخريبية قاموا هم - أي المستعربون وسواهم من وحدات «البالماح» و«الهاغاناه» والجيش الاسرائيلي بتنفيذها.

تخطيط وبرمجة وتنفيذ عمليات ارهابية–تخريبية

كانت المعلومات التي قام بتجميعها المستعربون قاعدة اولية لتخطيط وبرمجة عمليات ارهابية وتخريبية قاموا هم – أي المستعربون وسواهم من وحدات «البالماح» و«الهاغاناه» والجيش الاسرائيلي بتنفيذها.

ووضعت سلسلة من المخططات التي هدفت الى تصفية نشيطين في الميدان الفلسطيني والعربي على حدّ سواء. ونفذت عدة اغتيالات ضد شخصيات عربية قومية فلسطينية وعربية.

ونفذت الاغتيالات بكونها منفذة على يد عصابات ارهابية عربية او فلسطينية وذلك لخلق بلبلة وانشقاق في الاوساط الفلسطينية والعربية عامة، ولإبعاد الشبهات عن اليهود او القوات الحربية اليهودية، واكثر من ذلك لإظهار مدى الانشقاق والفروقات والتباعد بين الفلسطينيين وعدم تمكنهم–أي الفلسطينيين من توحيد صفوفهم.

ووضعت فرق المستعربين اهدافا للتصفيات والاغتيالات لشخصيات فلسطينية وعربية، كما اشرنا، منها مدير بنك الامة، ونقابيو جمعية العمال العربية، واعضاء في عصبة التحرر الوطني، اضافة الى عشرات من الشخصيات الوطنية الفعالة على الساحتين المحلية والعربية العامة.

وشملت القائمة المستهدفة كلاً من: حسن سلامة من ابرز قياديي الثورة الفلسطينية في الثلاثينيات، وعبد القادر الحسيني بطل القسطل، وكمال عريقات قائد حركة «الفتوة» في القدس، واميل الغوري احد مؤسسي الحزب العربي الفلسطيني ومن نشيطي الهيئة العربية العليا، والشيخ صبري عابدين المفتش العام لصندوق الامة وأحد الموالين للمفتي الحاج امين الحسيني وصبحي الخضرا من مؤسسي حزب الاستقلال ومساعد المفتي، وحسن شبلاق من قياديي حيفا العربية ورشيد الحاج ابراهيم من الفعالين في حقلي النقابات والاحزاب السياسية وحركة الشبان المسلمين، والقائمة طويلة جدا.

واشار يغآل يدين رئيس قسم العمليات في «الهاغاناه» الى انه ملقى على عاتق المستعربين تصفية الاهداف اعلاه بدون تصديق اضافي. واضاف الى انه من الضروري ان تتخذ هذه العمليات الارهابية طابعا عربيا من حيث تنفيذها والبيئة التي يتم فيها التنفيذ.

من جهة اخرى ادركت قيادة وحدة المستعربين ان عمليات التصفية والاغتيالات تساهم كثيرا في احباط معنويات وعزائم الشرائح الفلسطينية وبالتالي تنشر اجواء من الخوف والقلق المستديم.

برمجة نزاعات طائفية خدمة لاسرائيل

ادركت القيادة السياسية لاسرائيل ان حالة لبنان فيها الكثير من الحساسية الطائفية والسياسية في الوقت ذاته. وان لجوء اعداد كبيرة من الفلسطينيين الى لبنان يزيد من درجات هذه الحساسية، خاصة وان التوازن الطائفي العددي في لبنان اصبح معرضا للخطر. وانه من الضروري اقحام الفلسطينيين في الصراعات الداخلية في لبنان، واثارتها من باب تنفيذ عملية اغتيال لرئيس الوزراء اللبناني رياض الصلح.

ورأت القيادة الصهيونية والاسرائيلية فيه رجلا يشكل خطرا على مصالحها الاستراتيجية في المنطقة، خاصة وان مواقفه الصلبة دعت الى زحف الجيوش العربية الى فلسطين والقضاء على اسرائيل. وان اغتياله سيفيد الحالة الاسرائيلية بكون الاغتيال سيلهي اللبنانيين خاصة والعرب عامة في امورهم واحوالهم الداخلية، وبالتالي سيخف الضغط السياسي والعسكري عن اسرائيل، ويجري تصعيد سياسي وأمني ضد الفلسطينيين بكونهم كانوا السبب فيما حصل في لبنان، حال اخراج العملية الى حيز التنفيذ.

وتم تكليف عدد من المستعربين لترصد تحركات الصلح والمواقع المألوفة وشبه الدائمة التي يلجأ اليها لقضاء الشؤون السياسية او الاجتماعية . ووضعت خطة محكمة للغاية، الا ان المستوى السياسي الاسرائيلي تراجع عنها لاسباب سياسية ودبلوماسية. بالرغم من ان التحضيرات السابقة لعملية الاغتيال استغرقت وقتا وجهدا كبيرين. واغتيل الصلح في تموز ١٩٥١ اثناء زيارة رسمية له في عمان–الاردن على يد اعضاء من الحزب القومي السوري انتقاما لاعدام زعيم الحزب المذكور انطوان سعادة على يد الحكومة اللبنانية.

وملاحقة عصابة «الايتسل» أيضاً

كانت منظمة «الهاغاناه»، و«البالماح» ايضا، تعتبر نفسها صاحبة الحق المباشر والوحيد في اقامة الدولة اليهودية في فلسطين بموجب العهود والتعهدات البريطانية والدولية الخاصة بهذا الامر. ولهذا بنت «الهاغاناه» علاقات حسنة مع الحكومة البريطانية في لندن ومع حكومة الانتداب، بالرغم من خروجها عن خط العلاقات الحسن في حالات معينة قبل اندلا ع الحرب العالمية الثانية، وعلى وجه الخصوص عند تباين التوجهات السياسية والعسكرية المتعلقة بالثورة الفلسطينية في أواخر الثلاثينيات. ومع كل هذا فهمت قيادة «الهاغاناه» وفي مقدمتهم ديفيد بن غوريون انه فقط بواسطة بناء علاقات حسنة مع بريطانيا يمكن تسهيل عملية نقل الحكم والادارة الى اليهود في فلسطين، بعد ان يتم تهميش الفلسطينيين عسكريا وسياسيا.

وبناء عليه عارض بن غوريون أي توجه عسكري ضد بريطانيا، خاصة خلال الحرب العالمية الثانية، من منطلق ادراكه ان التحالف مع بريطانيا هو الافضل مستقبلا للقضية اليهودية، ولم يكن مستعدا لأي تنازلات في هذا الشأن مع توجهات عصابة «الايتسل». هذه العصابة اعلنت حربا على الانتداب البريطاني ووضعت نصب عينها طرد الانكليز من فلسطين فلجأت الى الاساليب الارهابية ضد شخصيات ومواقع بريطانية انتدابية في فلسطين، اضافة الى العمليات الارهابية والتخريبية التي استعملتها ضد العرب الفلسطينيين.

وللحيلولة دون تردي العلاقات الصهيونية – البريطانية اصدرت قيادة «الهاغاناه» بالتعاون مع «البالماح» اوامرها الى عدد من المستعربين لتنفيذ عمليات ملاحقة ضد اعضاء في «الايتسل» ، خاصة في فترة «الموسم – السيزون الكبير» بين عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥. وجاءت هذه الاوامر في اعقاب اغتيال اللورد موين، المفوض البريطاني في الشرق الاوسط على يد عصابة «الايتسل». ومن بين العمليات التي نفذها مستعربون ضد اعضاء من «الايتسل»: نقل معلومات استخبارية عن تحركاتهم والاسلحة التي بحوزتهم واماكن تواجدهم، اضافة الى رفع مستوى الملاحقات بواسطة تنفيذ عمليات خطف قياديين ونشيطين في «الايتسل» وتسليمهم الى الانكليز مباشرة لمحاكمتهم.

لقد عرفت قيادتا «الهاغاناه» و«البالماح» الاستفادة من العداء المستحكم بين الحكومة الانتدابية وعصابة «الايتسل» (وايضا عصابة الليحي) لتجني ثمارا كبيرة لصالحها على المستويين السياسي والتنظيمي العسكري.

ان المساهمة الكبيرة التي قدمتها وحدة المستعربين كانت بواسطة استثمار خبرات اعضائها في مجال العمل المخابراتي وتجميع المعلومات على مختلف اشكالها وانواعها وبالتالي وضع خطط تنفيذية ضد «الايتسل» للحد من نشاطاتها وفعالياتها المعادية للانكليز، والانكليز كانوا في امس الحاجة الى هدوء في منطقة الشرق الاوسط ليتمكنوا من مواجهة وصد امكانيات زحف الماني–ايطالي نحو قواعدهم ومراكزهم في مصر وفلسطين.

وللاشارة والتشديد الى ان التفاهمات الصهيونية مع الانكليز وصلت الى طريق النهاية مع نهاية الحرب العالمية الثانية، بمعنى ان الالتزام الادبي في اضفاء هدوء في فلسطين قد انتهى، ولم يعد ملزما لـ «الهاغاناه» و«البالماح» أي تفاهم مع الانكليز ، لهذا فإن فرق المستعربين قامت بتجميع معلومات كثيرة حول تحركات قواد وضباط وشرطيين وموظفين انكليز تعرضوا ليهود، حسب ادّعاء المنظمات اليهودية العسكرية، وبالتالي اصدرت محكمة «الهاغاناه» احكاما بالاعدام او التعذيب بحق هؤلاء، والجهة المنفذة لم تكن سوى فرق المستعربين.

ويجب ان نذكر هنا ان فرقا من المستعربين لعبت دورا بارزا في تجميع معلومات عن الجسور التي كانت تربط فلسطين بالبلدان المجاورة، وتم نقل هذه المعلومات الى قيادة «البالماح» التي امرت بنسف الجسور في عملية تخريبية عرفت بـ «ليل الجسور» بين ١٦–١٧ حزيران ١٩٤٦.

المستعربون يساهمون في ترحيل يهود البلاد العربية

أدرك آباء «الهاغاناه» و«البالماح» السر الكامن في المستعربين كأحد المصادر الاساسية لتهجير وترحيل اليهود العرب (مصطلح شائع يشير الى اليهود مواطني البلاد العربية منذ عدة قرون متخذين أسس الحياة العربية ركنا لهم دون المس بحريتهم الدينية والاجتماعية، وينتمون بموجب التقسيم الطائفي اليهودي الى الطائفة السفارادية). والفكرة من وراء الاستعانة بالمستعربين لتحقيق عمليات تهجير وترحيل لإظهار قسوة معاملة العرب لليهود من منطلقات قومية، وان المكان الوحيد لعيش اليهود فيه بأمان في العالم هو في «أرض آبائهم واجدادهم» – أي فلسطين. الاستثمار الذي ارادته قيادة المنظمات الصهيونية اعلاه وغيرها هو تكثيف هجرة اليهود من العالم وتجميعهم في دولة يهودية مزمع انشاؤها قريبا. اضف الى ذلك، ان ملاحقات اليهود في اوروبا لم تكن أمرا مؤثرا بالنسبة لحالة اليهود في البلاد العربية، ولكن آباء الصهيونية وزعماء العصابات الارهابية أرادوا اظهار معاناة اليهود العرب بواسطة تنظيم عمليات ترحيل وتهجير وبالتالي الاستفادة منها على الصعيد العالمي. وأود الاشارة هنا الى أمر آخر فكر فيه قياديو المنظمات اليهودية الارهابية وهم اشكنازيين، بأن الدولة العتيدة بحاجة ماسة الى أيد عاملة غير عربية، وأنها – أي الدولة – بحاجة الى عارفين بالعربية لغة، وعادات وتقاليد لمواجهة العرب وجيوشهم وتحركاتهم مستقبلا.

ولتحقيق هذه الغايات قام المستعربون بتجميع معلومات عن طرق ومسارات بعيدة عن مواقع سكنية وعسكرية وشرطية في سورية والعراق لتهريب مجموعات كبيرة من اليهود الى فلسطين. ووضعوا خرائط تفصيلية لتنفيذ عمليات التهريب. وبالفعل انطلقت خلايا من المستعربين من الكيبوتسات التالية: اشدوت يعقوب، عين غيف، آيليت هشاحار، حانيتا وكفار غلعادي. وتم فيما بعد فتح مكاتب لتنظيم عمليات التهجير والترحيل بإرشاد وموافقة «موساد الهجرة ب غير الشرعية» في دمشق وحلب والقامشلي وبيروت. وبلغ عدد اليهود المرحلين والمهربين بواسطة هذه المكاتب في العام ١٩٤٦ ما يربو على ٥٠٠٠ يهودي.

وبناء عليه عارض بن غوريون أي توجه عسكري ضد بريطانيا، خاصة خلال الحرب العالمية الثانية، من منطلق ادراكه ان التحالف مع بريطانيا هو الافضل مستقبلا للقضية اليهودية

وكانت هناك معارضة من مختار الجالية اليهودية (فرح رومانو) في دمشق، على سبيل المثال، الذي خاف وقلق من احتمال تصفية وجود الجالية اليهودية في المدينة فيما لو استمرت عمليات الترحيل وتواصلت، الا انه لم يتمكن من صدها او التقليل منها. وبالفعل فإن دور المستعربين كان نصيبه النجاح الكبير في تدمير أسس وجود الجالية اليهودية –العربية في المدن المركزية والكبرى في بلاد الشام والعراق أيضاً. واستعان المستعربون لتحقيق هذا الغرض بعرب محليين لقاء حفنة من المال.

وبكون الحكومة البريطانية الانتدابية وضعت قيودا على اعداد اليهود المهاجرين فإن الهيئات الصهيونية، وفي مقدمتها «الهاغاناه» قد عرفت كيف تتم عمليات تهريب اليهود الى فلسطين بواسطة توطينهم في الكيبوتسات ومنحهم هويات أو اوراق ثبوتية مزيفة.

من جهة أخرى، كان اليهود – العرب المرحلون الى فلسطين مادة جيدة لاختيار مستعربين من صفوفهم لتدريبهم وتكليفهم بمهام استخبارية في العالم العربي او داخل فلسطين ثم اسرائيل بعد ١٩٤٨.

التنكر للحضارة العربية

تؤكد المراجع التاريخية ان اليهود مواطني البلاد العربية قد تمتعوا بوضع متميز ايجابا مقارنة مع احوال الجاليات اليهودية في اوروبا على سبيل المثال، ويكفي الاشارة الى ان ما حدث لليهود في المانيا على يد النازية ما كان ليحصل في البلاد العربية ولن يحصل، مهما كانت الاحوال السياسية والعسكرية وسواها.

وبناء عليه تمتع اليهود في البلاد العربية بمكانة اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية مرموقة، فمنهم من تبوأ وظائف وزارية في العراق ومصر، ومنهم من وصل الى مراتب عالية في ميادين اقتصادية وفكرية، وبإمكان كل ذي اهتمام بهذا الجانب العودة الى المراجع التاريخية الحقيقية والصحيحة لمعرفة احوال اليهود في البلاد العربية. واستمرت احوال اليهود بصورتها الجيدة حتى اقامة اسرائيل في العام ١٩٤٨، حيث اعلنت الحكومة الاسرائيلية الحرب على الدول العربية وانها – أي الحكومة الاسرائيلية– ستسعى الى هجرة كل اليهود في البلاد العربية اليها. وطبعا انعكس هذا سلبا على احوال اليهود في البلاد العربية. من جهة اخرى فإن عمليات تهجير وترحيل العرب الفلسطينيين عن موطنهم كان لها الاثر السلبي تجاه حالة اليهود في البلاد العربية. وهنا، وفي هذا المفصل التاريخي عرفت الحكومة الاسرائيلية كيفية الاستفادة من المستعربين الذين تم تجهيزهم مسبقا على يد المنظمات العسكرية اليهودية كـ «الهاغاناه» و«البالماح» بواسطة بثهم في البلاد العربية، وخاصة في سورية والعراق ولبنان. وهؤلاء نشروا الافكار الصهيونية الداعية الى هجرة (قدوم) اليهود الى اسرائيل حماية لهم من احتمالات أكيدة بوقوع مجازر ضدهم من قبل العرب في مواقع عيشهم، علماً ان مجزرة واحدة لم تحدث في أي موقع في البلاد العربية ضد اليهود حتى بعد اعلان اقامة اسرائيل. وأكثر من ذلك لم يحدث أي هجوم جماعي منظم من قبل عرب او حركات سياسية–عسكرية عربية ضد تجمعات الجاليات اليهودية في البلاد العربية، بعكس ما فعلته الحكومة الاسرائيلية ومن قبلها العصابات اليهودية تجاه العرب الفلسطينيين من عمليات ارهابية وتخريبية ومجازر وترحيل وتدمير وتطهير عرقي واسع لم تعرف فلسطين شبيها له عبر التاريخ.

النجاح الذي حققته المنظمات العسكرية الصهيونية فيما يتعلق بولاء المستعربين انها جردتهم من قواعدهم واصولهم الحضارية المنبثقة من المجتمع العربي والحضارة العربية، فلم يشعروا بالمرة أنهم سوريون وان حلمهم، كما صرح بعضهم في مذكراته او مقابلات صحافية واذاعية، العودة الى أرض الآباء والاجداد(فلسطين) التي يعتبرونها الوطن السياسي، علما ان مثل هذا التوجه كان مألوفا في اوساط اليهود الاشكنازيين وليس في اوساط اليهود السفارديين الذين تمتعوا بنوع من الاستقلال (الاقرب الى الاوتونوميا).

هذا التنكر الفاضح والواضح للاصول يؤكد نجاح الصهيونية في خلق تباعد بين اليهودي والموطن الذي ولد وعاش فيه ، ونقله الى وضعية جديدة أساسها استيطاني/استعماري بعد ان كان اليهودي في البلاد العربية شريكاً بكل معنى الكلمة في بناء مجتمع عربي يصبو نحو حالة افضل (ومجددا يمكن العودة الى الكتب التاريخية وقراءة عشرات من الاسماء اليهودية المساهمة في بناء الحضارة العربية من فترة قريبة او بعيدة).

بناء صورة سلبية عن العربي

جزء مهم في بناء الصراع بين اليهود والعرب (الفلسطينيين على وجه الخصوص) هو بناء صورة سلبية للغاية في كافة مكوناتها عن العربي، وأهم مقطع في هذه الصورة كون العربي متخلفاً وارهابياً. وصورة العربي أنه ارهابي ليست مسألة حديثة العهد بقدر ما هي قديمة تعود الى الثلاثينيات عندما بدأت العصابات الصهيونية التعامل مع العربي المقاوم للاستيطان والهجرة اليهودية الى فلسطين كحق شرعي لمن يرى ان الارض تُسرق من تحته، فتم تصوير العربي بأبشع الصور بما في ذلك الوصول الى نقاط عرقية.

ومما جاء في المعلومات الاستخبارية التي نقلها المستعربون عن العرب انهم ميالون الى سفك الدماء واثارة الخلافات والشجارات. وبلغ الامر بأحدهم (حبقوق كوهين وهو من مواليد اليمن ومن نشيطي المستعربين في بيروت والاردن) ان تعجب كيف يستطيع تحمل هؤلاء العرب.

وحبقوق ذاته يشير الى الاستهتار الذي يلقاه العربي من اليهودي لكونه عربيا مختلفا عن اليهودي

(هذا ما يورده جمليئيل كوهين في كتابه عن المستعربين الاوائل).

كانت عملية بناء صورة العربي السلبية لدى المستعربين من منطلق تذكيرهم انهم يهود، حتى لو تبنوا حياة ونهج العرب كجزء من عملهم ومهنتهم وليس جزءا من حياتهم. بمعنى آخر التشديد غير المباشر

على تفوق اليهود على العرب وافضليتهم في كافة الميادين.

ملف القرى – ماذا احتوى؟

شملت العمليات الاستخبارية التي قام بها المستعربون زيارات متواصلة الى القرى الفلسطينية الكبرى، واحيانا الى قرى صغيرة. وانطلقت قيادة «الهاغاناه» من نقطة كون القرى مادة مغذية لثورة فلسطينية او لعمليات عسكرية ضد اليهود، ولهذا قام المستعربون بالتعرف على طرق وشوارع مؤدية الى كل قرية واخرى، وجمعوا معلومات حول تاريخ كل قرية، واحوالها الاقتصادية، وتركيبة سكانها، خاصة في كل ما له علاقة بالحمائل والعشائر، وابرز الشخصيات وصفاتهم، ومؤسسات وجمعيات اهلية عاملة في القرى، والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية مع القرى المجاورة، وغير ذلك من معلومات.

اما الاهداف الاساسية وراء كل عمليات التجميع هذه، فتكمن في معرفة اعمق لأحوال كل قرية في كافة مجالات الحياة، وبالتالي الى وضع خطة عسكرية تتعلق بكل قرية، ولهذا فإن «الهاغاناه» قامت بوضع ملفات لكل قرية (موجودة في ارشيف «الهاغاناه» ويمكن العودة اليها بعد ان تم فتحها في الفترة الاخيرة بموجب قانون الاقدمية)، مع التركيز على الشخصيات التي تشكل خطرا على اليهود ومصالحهم. وتم تحديد بعض الشخصيات لإغتيالها بموجب المعلومات المتوفرة في الملفات. (ملاحظة: راجعت عددا من هذه الملفات، خاصة ملفات قرى في منطقتي الجليل الاعلى والشرقي، فتبين لي مدى دقة المعلومات التي تم جمعها على يد المستعربين، حتى بلغ الامر بهم – وقد يكون مضحكاً – ان ذكروا عدد الدجاجات والديكة لدى عدد من الشخصيات).

الخطة «ب» لـ «الهاغاناه» ودور المستعربين

أخذ تجديد النشاطات والعمليات لكل المنظمات اليهودية/ الصهيونية في فلسطين زخماً أكبر بعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها، خاصة وان بريطانيا حققت انتصارا على الالمان، وهذا ما راهنت عليه «الهاغاناه» التي تحالفت مع الانكليز ولو على مضض وبصورة غير رسمية، وبناء عليه اطلقت «الهاغاناه» خطة «ب» ومفادها كيفية مواجهة الفلسطينيين في حال انتقال الاخيرين الى حرب عصابات. وبناء على هذه الخطة تم وضع خطة أكثر تفصيلا في ايار ١٩٤٦ اساسها الانتقال من حالة الدفاع ومواجهة الارهاب الفلسطيني الى تنفيذ سلسلة من العمليات العسكرية ضد اهداف عربية وفلسطينية مركزية سواء أكانت موجهة ضد شخصيات وطنية وقومية فلسطينية وعربية أم ضد مرافق اقتصادية. وتم وضع قائمة من الاهداف:

١) اصابة القيادة السياسية.

٢) تصفية محرضين بواسطة متعاونين.

٣) تصفية واغتيال موظفين عرب معادين لليهود.

٤) الحاق اضرار بحركة المواصلات والتنقلات العربية.

٥) الحاق اضرار واتلاف مواقع اقتصادية حيوية مثل مطاحن قمح، ابار وخزانات مياه وغيرها.

٦) الحاق اضرار بنواد ومقاهٍ وجمعيات واندية وغيرها....

٧) تنفيذ هجمات على قرى او احياء سكنية في مدن يعتقد انها تأوي مخربين وارهابيين فلسطينيين.

أما دور المستعربين في تسهيل تنفيذ العمليات الواردة اعلاه فتمركز في تجميع المعلومات بكافة اشكالها وانواعها وتوصيلها الى مراكز القيادة لدراستها والاستعانة بها في وضع الخطط اللازمة لتنفيذها. ولهذا، فإن مساهمات المستعربين كانت في غاية الاهمية لكونها تساهم فعلا في وضع خطط محكمة يكون بالتالي من السهل تنفيذها مع تقليص احتمالات وقوع اخطاء او اضرار لمنفذيها.

الحيطة مطلوبة

طلب من المستعرب ان يتخذ سلسلة من خطوات أخذ الحيطة والحذر، وننقل بعضا منها للتعرف عليها جيدا:

* الا يلتقي المستعرب مع زميل له يعمل في نفس البلدة.
* الا يتدخل في شجار او نزاع في حارة اقامته.
* الا يقوم بلقاء يهود او فلسطينيين من المحتمل أن يعرفوه.
* الا يثير الشكوك حوله في حال تبذيره اموالاً.
* عليه ان يتذكر انه من المحتمل ان يتكلم العبرية اثناء نومه، لذا عليه الامتناع عن النوم مع غرباء.
* عليه الامتناع عن الاحتفاظ بصور او وثائق او مستندات اخرى حول اعضاء الخلية التجسسية.
* عليه التمسك بقصته المختلقة في حال رضوخه لعمليات تحقيق.

* ان يمتنع عن توريط اشخاص آخرين والا يقوم بكشف علاقات له مع اسرائيل.

تعكس هذه الاحتياطات مدى دقة وحساسية دور ومهام المستعرب، والا فإنه لن يكون الخاسر الوحيد بل سيجر وراءه عدداً آخر من اعضاء الخلية التي ينضوي تحت كنفها او خلايا اخرى.

من جهة اخرى نلحظ ان هذه الاحتياطات تشير الى نوعية بناء شخصية تجسسية محكمة، مما يؤكد المستوى العالي للأداء الذي كان يتوجب على المستعرب القيام به.

المستعربون في تتابع

رغم ان دور المستعربين الاوائل قد انتهى منذ اكثر من نصف قرن، الا ان كشف حقائق وتفاصيل عنهم في الاونة الاخيرة لهو أمر مهم يساعد في فهم ومعرفة اساسية في عمل ونشاط المستعربين الحاليين الذين ينشطون في الاوساط الفلسطينية والعربية داخل وخارج فلسطين.

ان الاستعراب، على ما يبدو، لن يكون نصيبه التوقف او الانتهاء، فهو موجود في حالتي الحرب والسلم على السواء. فحاجة اسرائيل كبيرة وملحة الى استمرارية توارد معلومات عن الفلسطينيين والعرب، حتى تتمكن الحكومة الاسرائيلية وهيئاتها السياسية والحربية من بناء خطط للتعامل مع العرب وقضاياهم.

رغم سرية نشاط المستعربين الحاليين واضفاء نوع من الكتمان شبه المحكم، الا ان وحدات المستعربين تلاقي تأييدا منقطع النظير في اوساط القيادات السياسية والعسكرية الاسرائيلية، اضافة الى الشارع العام في اسرائيل. وللاشارة هنا مع التأكيد ان عمليات الاغتيال والتصفيات التي تقوم بها اسرائيل بحق فلسطينيين ناشطين سياسيا او عسكريا مردها الى النجاح الهائل الذي تحققه وحدات المستعربين، من اساسيات هذا النجاح معرفة المستعربين في جذب اعداد ليست بقليلة من المتعاونين والخونة من بين الفلسطينيين مقابل بعض المبالغ من المال أو الابتزاز عبر تحقيق تسهيلات اقتصادية ومعيشية ووظيفية.

وان كان هناك تعاون من جانب بعض الفلسطينيين فإن ذلك لا يعني اعتمادا كليا عليهم من قبل المستعربين، فالفلسطيني الخائن ما هو الا وسيلة في سبيل تحقيق الاهداف الكبرى والتي يرسمها المستعرب وينال عليها موافقة المستويين السياسي والعسكري لتنفيذ ذلك نهائيا ومطلقا.

عمليات التصفية التي تقوم بها وحدات من المستعربين تعتبر اعمالا بطولية في الاوساط الاسرائيلية، وتشكل نوعا من الاجماع العام الموافق على عمليات كهذه خدمة للدولة ومشروعها الاحتلالي.

خاتمة

ما زال موضوع الاستعراب والمستعربين يشكل نوعا من المقدسات التي لم يحن وقت الاعلان عنها، خاصة ما له علاقة بالوضع السياسي والعسكري الراهن ضمن الصراع الاسرائيلي – الفلسطيني. لكن هذه الظاهرة في خضم الاجماع العام الاسرائيلي تعتبر من اساسات النجاح التي يحققها الجيش الاسرائيلي ويسعى الى ابرازها كجزء من حراكية البطولات. ولكن ما نشر حتى الآن عن المستعربين الاوائل خضع لرقابة عسكرية مؤكدة، وصُدّر بمقدمات توجيهية من اعضاء سابقين في المنظومة العسكرية الاسرائيلية. ما نشر حتى الآن يلقي ظلالا بسيطة للغاية على موضوع المستعربين، ولا يفي الموضوع حقه كاملا. وطبيعي ان الراغبين في البحث الواسع والمستفيض عن هذه الوحدة واهميتها سيواجهون صعوبات جمة وعقبات كثيرة تعترضهم، ولكن ما هو منشور الى الآن يساهم في تعريف المستعربين والاستعراب والتقنيات والطرق المستخدمة، ودورهم ومساهمتهم في تزويد الدوائر السياسية والعسكرية بالمعلومات الضرورية واللازمة لتحرك الاجنحة العسكرية لتنفيذ الخطط، وهي في الغالب عسكرية.

اما المصادر والمنشورات التي يمكن ان تفيد القارئ فهي (بالعبرية):

١) اشيل، تصادوق. معارك «الهاغاناه» في حيفا. اصدار وزارة الدفاع، ١٩٧٨.

٢) غلعاد، زروبابل. كتاب «البالماح» (الاجزاء أ و ب).

٣) درور، تسفيكا. مستعربو «البالماح». اصدار وزارة الدفاع بالتعاون مع الكيبوتس الموحد، ١٩٨٦.

٤) مركوفتسكي، يعقوب. الوحدات البرية الخاصة التابعة للبالماح. اصدار وزارة الدفاع ومركز قوة الدفاع في «الهاغاناه» على اسم يسرائيل غاليلي، ١٩٨٩.

٥) نبو، عاموس. المستعربون – ظهور وغروب الدائرة العربية في «البالماح» ١٩٤٠ – ١٩٥٠. اطروحة لنيل اللقب الثاني في جامعة تل ابيب، ١٩٨٦.

٦) كوستيكا، شلومو. يوميات شلومو كوستيكا. اصدار الكيبوتس الموحد، ١٩٨٩.

٧) ريكا، الياهو. فراشة السحر. اصدار خاص، ١٩٨٧.

٨) كومين، جمليئيل. المستعربون الاوائل – قصة الدائرة العربية في البالماح. اصدار وزارة الدفاع، والجمعية لدراسة قوة الدفاع على اسم يسرائيل غاليلي، ٢٠٠٢.